مقطوعات " الـقول" بمنطقة البيض "بين سلطة اللّسان وسريان الرّمز

The “Gawl” Pieces in El-Bayad region “Between the authority of the tongue and the validity of the symbol

مهداوي الدين

المركز الجامعي نور البشير البيض ،الجزائر d.mehdaoui@cu-elbayadh.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/29 تاريخ القبول: 2023/05/28 تاريخ النشر: 2023/06/05

ملخص:

يعتبر "القول" من فنون التعابير الشعبية التراثية، الذي يتغنى به في المناسبات والأفراح، وتُعرف به عدة مناطق في الجنوب الغربي ، فهو يتميز بشكله المختلف عن عدة أشكال من التعابير الشعبية مثل الملحون والأمثال والأقوال والألغاز وغيرها، كما أن له مضامين اجتماعية–ثقافية وتاريخية وعاطفية ودينية وصوفية. فهذا البحث جاء ليسلّط الضوء على فن "القول" في التطرق إلى أشكاله ومضامينه، ويختص بمنطقة البيض كنموذج للدراسة، نظرا لثرائها بالعديد من المقطوعات القولية ذات المضامين المختلفة والأشكال المتميزة.

الكلمات المفتاحية:

القول، التعابير الشعبية، مضامين القول، شكل القول، منطقة البيّض

Abstract:

The art of "GAWL" is a traditional folklore arts, which is sung in occasions and weddings, and known in several regions in Southwest, it is characterized by its different form of several forms of popular expressions such as melodies, proverbs, sayings, puzzles and others.

It also has socio-cultural, historical, emotional, religious and mystical implications. This research came to highlight the art of "GAWL" in dealing with its forms and contents, and is specialized in the ELBAYDH area as a model for study, because of its richness in many of the "GAWL" pieces with different meanings and distinctive forms.

Keywords:

"GAWL", popular expressions, "GAWL"'s Contents, "GAWL"'s forms, Albayadh area

1. مقدمة:

ليس من الجديد علينا أن نعثر في حقول الدّراسات العلميّة المتخصّصة في مجال التراثيات والثقافات الشعبية على مساهمات نوعية تناولت بالتركيز والتخصيص دراسة وتحليل ظاهرة التعابير الشفوية بمناطق الجنوب الغربي ، من خلال علامات وتفاعلات تاريخية وإنسانية وثقافية تشكلت كظاهرة ثقافية وتراكمت بفعل التواصل المتفاعل عبر بيئات ثقافية مختلفة حملت معها بصمات التنوّع والتخصّص الذي شاركت به عروش وقبائل وجماعات اجتماعية جمعت بين التكيف مع البيئة الاجتماعية البدوية وحملها القيم والهوية التي تحكي الأحداث التواريخ ،الأمجاد، البطولة والفروسية ، وعلاقتها بكثير من مكوّنات الوحدات التاريخية والإنسانية والقبلية في المجتمع البدوي الجزائري، وسواء أكانت هذه المساهمات دراسات مستقلة أو مقالات أو تقارير علمية لفرق بحثية.

فالطبيعة البدوية ليست الأصل في كل ذلك ولكنها هي في كل الأحوال من حملت ونقلت كل هذه الأنواع والطبوع والإيقاعات والتي من بينها فن "**الـقول**" الصحراوي الجزائري، التي تبقى علامة إنسانية خالصة تعكس كثيرا من الميزات الثقافية للإنسان الجزائري.

فالسّماع والفهم والمتابعة في مجالس " **الـقول** " يجعلنا نربط وبكثير من الدقة والإحاطة بين نصوص " **الـقول** " و "روحانية ناظميه والتاريخ الاجتماعي– الإنساني للعالم الوجداني الذي قامت عليه البنية الاجتماعية والثقافية والدينية وربطت بين مختلف التشكيلات السكانية التي نزلت منذ قورن طويلة من تاريخ هذا المكان، وتلاقت الرغبة بالاستقرار لدى هذه القبائل والعروش في هذه المناطق الشاسعة بجمالية المكان، فحصل ذلك الرتق الروحي والفكري والثقافي بين رجال ونساء القبائل الشامخة بصلابتها وقدرتها على التكيف مع شروط الحياة القاسية في عالم البداوة الممتد عبر كل هذه المساحات الممتدة بلا أفق ولا نهايات، فتولّد فن " **الـقول** " بالضرورة ليكتب تاريخاً ويحكي أمجاداً ويظل يقصّ باستمرار ويكل الإبداع الفني

والجمالي الممكن وببلاغة عربية صافية فصولا من تاريخ الأرض والإنسان والفكر والبطولة والكرم. إنها تريد أن تحتفظ إلى اليوم على صورة عالم تاريخي تشكّل وتكامل عبر الزمن في مشروع مجتمع له الجذور والأصول والقواعد التي تمتنع عن الذوبان والتحلّل، ليبقى هذا النموذج من المجتمع قويا ومستمرا ويواجه حركات التغيير بصلابة وحكمة ووعي بما يجب أن يبقى ويتقوى ويمتد عبر الأجيال من خلال كل هذا التمسك والاحتفاظ بفن " **الـقول** ". وهو ما يدفعنا للتساؤل في هذه الورقة البحثية حول

مفهوم " الـقول " بمنطقة البيض ، و ماهي أشكاله ومضامينه في التعبير اللساني ورمزيته في التداول من خلال نماذج لمقطوعات من الـقول ؟

2- التعريف بفن "القول" وتحديد خصائصه:

"القَوْل" مصطلح شعبي عربي مشتق من لفظ "قال" الفصيحة، ونعني تلك الأغاني التراثية والشعبية المحلية، وهو عبارة عن كلمات وعبارات لها مضامين معينة تقولها النساء، خاصّة وتؤدّى في شكل غناء في مناسبات، كالأعراس،أو عند ختان الأطفال والاحتفالات المختلفة، أو في استقبال أحد أعيان ورجالات الدولة حينما يحضر بالمنطقة كشكل من أشكال الاحتفاء به. وعليه يمكن إعتبار أن هذا الفن هو فن غنائي تراثي كانت تختص به النساء بشكل خاص، حيث يجتمعن ويرددنه في شكل غناء وبشكل جماعي، ويستعملن في أدائه آلة"الطبل" الموسيقية، أو ما يسمى بـ"البندير"، ليضفي عليه إيقاعا معيناً [1]

ويثير "القَوْل" جدلا بين المهتمين به في تصنيفه ضمن التعابير الشعبية؛ فهل هو شعر ملحون أم إنه شكل آخر غير ما ذكر؟ فمن حيث كلماته ليس"القَوْل" قصائد كالشعر الملحون الطويل منه والقصير، والتي تكون فيها الأبيات موزونة ومقفّاة كحال الشعر الفصيح

أو حتى بعض الشعر الشعبي التراثي الملحون، ولكنّه عبارة عن مقطوعة "قَوْلية" قصيرة لبضع عبارات وكلمات حول موضوع معيّن ليس بها قافية ولا هي موزونة تختلف عن الشعر بإعتبار هذا الأخير يعتبر الوسيلة الناجحة للتغني ،كالمقطوعة القولية التي خلدت معركة جبل كسال ونالت شهرة كبيرة بمنطقة البيض والتي تقول فيها صاحبتها

" **هاي لالة وهودي ياذ النو لهيه، وريبي لصحرا شحال عطشت فيهاجنود**"

ويا محايني،وْهَايْ لَالَة وْيَا كْسَالْ نْسَالَكْ لَّهْ وْعِيدْ عْلِيَّا بْجْوَابْ شْكُونْ لِي كَانُو فِيكْ، وْيَا مْحَايْنِي، هَايْ لَالَة وْمَا صْرا بَيْنْ جْبَالْ كْسَالْ وَاشْ يَقَدَّكْ فْلْحْسَابْ ذَا طَايَحْ ذَا مَحْبُوسْ ، وْيَا مْحَايْنِي،وهَايْ لَالَةلَاتْزَيَّرْشْ عْلِيهْ الكُورْدَا يَاكْ ايْدِيهْ مْحَرَّرِينْ مَاشَفُوشْ الَعَذَابْ، وْيَا مْحَايْنِي،هَايْ لَالَة تْحَزَّمُو خُوتِي بَلْقُرْطَاسْ وْدَارُو لْبْيَاسَة وَشَّهْدُو وْسْتْعَدُّو لَلْمَوْتْ وْيَا مْحَايْنِي،هَايْ لَالَة عْقَابْهَا فَلْبَيَّضْ مَزَالْ يَا خُوتِي وْيَاكْ آقْلُو شَعْلَتْ فِيهْ انَّارْ وْيَا مْحَايْنِي،هَايْ لَالَةوْ طْبِيبْ اصَّحْرَا كَتْلُوهْ، وْيَا مْحَايْنِي السِّي امْحَمَّدْ رُوحْ بْلَامَانْ وْهَايْ لَالَة، وْهَايْ لَالَة وْهَوْدِي يَاذ اَلْنَّوْلَهَيْهْ، وْرِيبِي لَصَحْرَا شْحَالْ عَطْشَتْ فِيهَا جُنُودْ وْيَامْحَايْنِي."

تشير المقطوعة " هودي ياذ النوا لهيه " و من خلال الروايات المستجمعة تبين لنا بأن المقطوعة قيلت ما بين الفترة 1957– و 1959 أي إبان الثورة التحريرية في المنطقة الثالثة الولاية الخامسة والتي تنتمي لها ولاية البيض ، فمن حيث الدلالات الزمنية فهي مرتبطة باستشهاد الشهيد بوران أمحمد (1930– 1959) الذي جاء ذكره في أحد المقاطع سي محمد وبالكناية طبيب الصحراء

بالبطولة والشجاعة مثلا في ثورة التحرير ، بوصف الأبطال في حومات الوغى وبلائهم ضد الأعداء. وهو "أغزر مادة أدبية وأتقنها فنا وأكثرها تأثيرا، لأن الشعر خير معبر عما يختلج في النفوس، واللون الأكثر ملائمة والأسرع تجاوبا وانعكاسا والتصاقا بالحدث اليومي للثورة ومعايشة يومياتها التي شارك فيها أبسط مواطن وأعظم قائد 2

و"القول"كأغلب فنون التعابير الشعبية لا يعرف له قائل محدد، مثل في ذلك مثل الألغاز والأحاجي والأقوال والأمثال وحتى الألعاب الشعبية، حيث تنتقل "المقطوعات "القولية"بين أفراد المجتمع وتصبح ملكا للموروث الشعبي عامّة ولا يحق لأحد أن يختص بها دون غيره، ولكن قد يحدث أن ينسب إلى مؤدّيها، فيقال "قول"فلان أو فلانة (كـ"قول"الحاجة هدروقة والحاجة الضاوية مثلا) 3

تمثل شخصيّة " **القوال** " إرثاً ثقيلا في تاريخ الجزائر الثقافي من حيث كونها استوعبت كلّ إحداثيّات التغيرات التي عرفها المجتمع الجزائري بالارتكاز على ما مرّت به منطقة الجنوب الغربي للجزائر، فهو ليس بمقام المعلّم والشيخ والفقيه، يمتلك أصول الثقافة العامّة والعالمة ويأتيه رموز أطياف المجتمع فللمعلم مقاصد وللشيخ وللفقيه ما يحدد الدور والمكانة ويضبط العلاقات والمصادر، ولكن للقوال حركة تمسح وتمتد ولا تحدده الأمكنة ولا الأزمنة وليس له مقامات ملزمة للناس بالتقيّد بها والسير على منوالها، القوال يرى نفسه ويراه الناس بنفس الزاوية والمقدار، على أنه شخصية فريدة ومنفردة بدور مجتمعي خاصّ. 4

4-سلطة الرّموز الدلاليّة وسريان القول :

وفق هذه المنظومة من إحداثيات العلاقة بين قوال صانع لشبكة الاتصال اللفظية وبين من هو متهكيل ومندرج يتلقى ويستوعب ويحمل ما توافر من حمولات الألفاظ بكلّ معانيها، هل كان القوّال بخطابته المجازي أحيانا وسيطا ينقل القيم الفكرية في المعرفة الاجتماعية وهو

أمين عليها تارة ومستأمن تارة أخرى، باحثا ومتنقلا بين مكوّنات المجتمع فهو يريدها أن تنصهر في المبنى العام لمضامين "**اللغة الـقولية** " ليؤسس من بين كل هذه القيم المعبر اللّفظي الذي يقرب ويجمع ويسير بالجماعة الاجتماعية لتعرف ونقارن بين ما كان قائما في المجتمع وما هو قد تغيّر وتبدّل أو تثبت، فهناك هذه القوّة الاتصاليّة ونسيج العلاقات التواصلية، الذي يخلق جسور الامتداد بين الفعاليّات النفسيّة –الاجتماعيّة لتتثبت القيم الثقافية. يتوفر شخص القوال على العديد من مفاتيحها الإنسانية والتاريخية والدّلالية، فيرتبها ترتيبات بالأولويات، أولويات المأخذ والمصدر والبعد والغايات، ليتمركز حيث المكان المناسب والظرف المتطابق والشرط المساير ويتولى القيام بالأدوار المفصلية في نسج الخطاب الثقافي مستخرجا ألفاظه وتعابيره وعلاماته من عمق "**اللغة الـقولية** "، كما يفعل الممثل الرئيس في القطعة المسرحية، فكيف يمكننا أن نحدّد مكانة "**الـقول**" في الشبكة التواصلية لهذه اللغة، فهل هو فقط وسيط يكتفي بدور النقال والمبلغ للأفكار والقيم ويستحث المتلقين على تبليغها حقيقة أو مجازية مغلفة بكثير من نقاط الترميز والالتفاف على المورد والمصدر ليبقى معتما ويبقى الخط الفاصل لفك العتامة في الارتباط أكثر وأكثر باللغة القوالية التعاقديّة. بما يضمن استمرارها وورودها وبقائها حية منتشرة عبر رموز تحميها وتعينها على الانتشار كقيم إنسانية وثقافية وتبقى علامة من علامات رمزيّة قوّة الوجود للمجتمع بقوة لغته المحمية بالدور التواصلي للقوال ؟، أم هو مجرد ناقل ينقل الأخبار والحوادث وما جرت به الأزمان بين الأقوام، فيحمل ما تلقاه ويرسب كب ذلك شحنة واحدة غير مرتبة فتختلف مستويات التلقي، فيتشبّع ويتشرب طرف دون طرف قيما وأخبارا وأفكارا مصدرها واحد ولكن استيعابها يختلف حسب موقع ومكانة كل فئة وطبقة، وبذلك يخلق لنا القوال طبقات قيمة مقابل الطبقات الاجتماعية هي مختلفة ومتباينة في مستويات التلقي والاستيعاب والتشرب في وسط مختلف فئات الجماعة الاجتماعية، من أكثرها آثرة ومتانة وقوة إلى آخرها في السلك الاجتماعي للبحث في ماهية وطبيعة ونوعية ومستوى العلاقة بين خطاب لا يتقنه ولا يحيط بمضمونه البلاغي سوى القوال، وكيف يحدد أو كيف يتحدد

مضمون العلاقة بين مضمون الخطاب وموقف الجماعة الاجتماعية منه وهل للجماعة الاجتماعية ما هو متوقع من قدرات واستعداد ثقافي لتلقي مضامين الخطاب، وكيف تتحدّد أيضا نوعية الحمولة اللغوية المكثفة أو المجازية ومن تنوع الألفاظ في بيئة لغوية مليئة بالمعاني والدلالات، المرسخة لمقامات **الـقولية** الثقافية والاجتماعية، وهل اللغة **لـقولية** بخطابها التواصلي المنتقى هي لغة كافية لإدامة التداول والتواصل في بنية الجماعة الاجتماعية، على اعتبار أنها لغة قادرة على الحمل والتحمل لتبلغ عبر شبكة الألفاظ المتداولة مجموعات من الأفكار الجديدة أو المسترجعة أو التي قد تكون أفكارا بينية يتم تداولها لأغراض اجتماعية تقرب اللحمة والتضامن بين مكونات الجماعة الاجتماعية.

هل نجد في نصوص القوال الخطابية التي يضعها للتداول، ما يحمل طيف من الرّموز التداوليّة أو التعبيريّة أو الثقافيّة، التي تعكس لنا مواقع مادية في حياة الجماعة الاجتماعية من خلال تصور مسبق لنظام اجتماعي يهيكل الأدوار بحسب المكانة ، ضمن تقسيم اجتماعي لفضاءات المدينة، مدينة الجماعة الاجتماعية ومدينة القوال التي يستفرد بها لوحده ليستخرج منها القيم المركزية القاعدية التي تحمي جذوة الاستمداد الاجتماعي–الثقافي للمدينة الحقيقية، فهناك مدينة تسبيكن اخرى وفي حركة الاستيطان تبنى الهوية الفردية والجماعية ليكون الارتباط الهوياتي بالمدينة على نحويين متتابعين تتابع مجازي رمزي وتتابع حقيقي يتطلب من الجماعة تضامنا والتفافا ووحدة لمواجهة كل ما قد يفكك أواصر الجماعية الاجتماعية. هذا التقسيم الذي هو بدوره جامع وأوّلي –قبلي يرسم للجميع أزمنة وأمكنة الحراك والتواصل والتداول بمن فيهم القوال كشخصيّة اجتماعيّة تتحرّك في بيئة الجماعة الإجتماعيّة وفق سلّم التواجد الحقيقي أو التواجد الرّمزي.5

3–"منطق الـقول : بين "الاسترجاع" (Analepse) و"الاستباق" (Prolepse)

أدّت مثل هذه اللّمسات في تحقيق الاعتناء بالنصوص البلاغيّة واللغويّة التي تقترن بمسائل الخطابة والتبليغ، وفي كلّ الحالات المتعلقة بهذه التنوّعات فإنّ ممّا لاشك فيه هناك تطوّرات نوعيّة في تناول النصوص اللغويّة والبلاغيّة التي تعطينا تمثلات اجتماعيّة على غرار موقع

ودور " **الـقوال**" في النموذج الجزائري، ساهمت مثل هذه المباحث على **ظهور علم العلامات (la sémiologie)** ، الذي اهتم أصحابه والمشتغلين به في المدارس اللسانية المعاصرة بتحليل مكونات أنظمة العلامات بوصفها منظومة فكرية –ثقافية تشير لذاتها.6

إنها تستمد معناها من داخل هذه المنظومة **(self–referential)** أو بتجاوز مقاصد العبارة لمقاصد **الخطاب القوالي الجماعي**، بناء على نظامه الرّمزي الذي وجد في الجنوب الغربي للجزائر احتضانه الطبيعي والاجتماعي6، ويمكن أن تدعمه وتقويه نماذج من الدراسات البنيويّة، التي تعنى بأنماط التراكيب وقوانينها الشكليّة، فهي تبحث صلة العلاقة بالبنية وضروراتها التداولية البرغماتية التي تبحث علاقة الرّموز بمستخدميها اليوميين في السيّاق الاجتماعي الإجرائي بناء على مضامين وقواعد ودلالات السيّاق الإجتماعي للجنوب الغربي المحتضن لهذا الدّور وأعرافه الثقافيّة والفكريّة وما ينسحب عنها من خصوصيّات المرحلة التي ربطت ظاهرة القوال بتطوّرات مجتمع المرحلة الذي نتحدث عنه كثيراً لنستخرج خصوصية **القوّال** الاجتماعيّة والتاريخيّة.

مثله مثل رواد الفنون الشعبية القديمة لدى الأمم والشّعوب التي ملكت أصول الحضارة الإنسانيّة المتشعّبة، لا يستوي في قلوب الحاضرين قول القوال بأيّ حال وطبيعة واتجاه من دون أن تتزاوج الألفاظ والكلمات والتعابير العميقة الدّلالة برقصات جمالية تحمل في كلّ حركة منها مواقف ورؤى ونزعات يعرفها ويتقنها الراقص بتلك الحركات التي تمتد إلى عمق الكلمات، فيجتمع "**الراقص**" و "**القوال**" فيخلقان لنا لوحة نادرة من عناق الكلمة بالجسد، تجتمع فيها روعة النسق في الألفاظ والتعابير في تلك اللّغة القواليّة الراقية ومتماسكة ومتماوجة مع تلك الحركات الرّقصات التي لا تطرب ولا تغري إلا إذا صنعت وحدة وجود متكاملة، يستحضر الحضور من خلالها كلّ صور وملامح الوجود الاجتماعي التاريخي والإنسانية وتزيدهما البيئة المفتوحة على مكونات المجتمع ومرافقه.7

إنهم لظروف محدّدة فهم فيستقلون ويتفرّغون ويكون الحضور حضوراً شغوفاً ومتعلقاً وباحثاً عن أصول الانتماء للجماعة، فيفدون إلى محفلهم وهم بحركة نوعية يسترجعون بها قوة

الجماعة الاجتماعية ورصيدها الثقافي النوعي الكبير، فيهتزون اهتزازا ويحملون معهم أصول هوياتهم الجماعية فيحصل التواصل من خلال تلك الموازين التي يرسمها الراقصون بحركات الوجود ويحددها القوال باجتهاد فكري ونفسي ليرتبط به الحضور وتعلو الكلمات والألفاظ وينتشي الجميع بمنابعهم الثقافية ورموزها الجمالية، فالجماعة في حركة اجتماعية متواصلة وهي من تختار الزمان والمكان والوقت، ليكون كل ذلك أيضا في توافق جمالي وتعبيري مع اللقاء المنظومي الذي تتحكم فيه تلك المعجمية البلاغية التي يتفنن القول فيها ذلك "القوال" الماهر بفنه والعارف بإحداثيات إمتاع الأسماع والأفهام8

4 – ستيغما الدّور الاتصالي للقوال :

إذا ركزنا مليا على الدور الاجتماعي المخلوق والمتبلور من قبل الجماعة الاجتماعية لحدود الرمزية الفكرية والبلاغية لشخصية القوال في المجتمع، تستحضرنا تلك الرّؤية العلميّة التي اشتغل بها الثنائي **غوفمان Goffman** في تحليله **للستيغما Stigma**، في أنماط الثقافات الإنسانيّة والأدوار الإجتماعيّة فيها، فالوقوف على شخصيّة القوّال يكشف أنّها تنطوي على كثير من المكوّنات والملامح والمداخل التي تسمح لنا بمعالجة الظاهرة معالجة متعدّدة المداخل وخاصّة في محاولة فهم بنية الوظيفة وخصوصيّة البناء الاجتماعي وتحليل قواعد تكوين الشخصيّة، وبحسب نسق الثقافة تتبلور مكوّنات الشّخصيّة القاعديّة على نحو ما يحصل لشخصيّة القوّال باعتباره حاملا وممثلا وعارفا بقواعد التواصل بين الأجيال.9

إنه يغذيها بمزيد من الإيقاع والإثارة والإقبال ونحتاج لتمتين النظرة العلميّة تجاه هذه الظاهرة أن نستفيد من إشراك مقاربات سوسيولوجية وأنثروبولوجية وتحليل–نفسية، من أجل الوصول إلى وضع تشخيص عام يفهم طبيعة المجتمع ومراحل التطوّر التي اجتازها ونفهم معها طبيعة الإنسان في البيئة الثقافية وكيفية حمله لقيم استئناسه الثقافي والاجتماعي فيها واتخاذه مجموعة من العلامات والرّموز والدّلالات التي تعطي لوجوده الاجتماعي شرعية إنسانية بالتمثل والتمثيل والتوجه نحو تسييج هذا الوجود الاجتماعي–التاريخي بكثير من ملامح

التميز والاستدخال حتى تبقى الجماعة الاجتماعية الممثل الأعلى لخصوصية الإنسان في بيئة اجتماعية–ثقافية محدّدة الوجود.

هذه الخصوصيّة تستمرّ فعّالة ومتفاعلة ومنضبطة في الحركة الاجتماعية التي تجتذب وتفعل وتوجّه سلوكات جميع الأعضاء نحو التناظر والتماثل والتطابق في بنيات السّلوكات التي تؤتى جماعة بظروف وشروط وحيثيات أو تؤتى لدى الأفراد المنتمين إلى بنية ثقافيّة – اجتماعيّة برصيد مجتمع متراكم ومتوارد عبر تجارب وخبرات وحوادث حملتها المراحل وتفاعلت مع باقي مكوّنات المجتمع، وخاصة منه ما تعلق بتيارات إدارة المجتمع وحمايته في اللحظات التاريخية الأشد عتامة وضغطا وتأثيرا، والتعبير عن مواقف الجماعة الاجتماعية لتبقى فاعلة وتبقى معها خصوصياتها الثقافية–الاجتماعية قائمة ومستمرة وتعبر عن مستوى القيم الاجتماعية التي تبناها الجميع في مختلف مراحل التطور المجتمعي10

7–الثقافة الوظيفيّة للنسق التواصلي محمولا في "اللّغة القواليّة":

بنية الثقافة ونمطها في هذه المناطق تكيفت وتلازمت مع طبيعة المجتمع البدوي بكلّ مقوّمات النشاطات الرعويّة والزراعيّة والتجاريّة ونمط السكنى وطرق التعايش بين مختلف المكوّنات السكانيّة لهذا المنطقة الشاسعة من الجنوب الغربي ومن بينها البيض والتجمعات العمرانية المرتبطة به، فالمقوم الثقافي كان من البداية المجال المفتوح لبناء العلاقات بين القبائل والعروش والمناطق الممتدّة عبر مساحات الاستغلال والتجاور والتنقل والتعامل بناءً على رصيد إنساني تواصلي استمر بفعل التراكم في انساق الاتصال المفتوح بين هذه المكوّنات. كان من بين العوامل التي أعطت لهذا المقوم الثقافي قوته وفعاليته وجود اتفاق نفسي–اجتماعي بإغناء كل ما يتعلق بالرصيد الإنساني للثقافة المحلية، وبمجرد ما نجلس ونتواصل مع فضاءلت القول ونستمع لمضامين القول وإبداعات القوالين والقوالات نكتشف تمسكا والتزاما بتوظيف القيم الثقافية لصناعة واقع اجتماعي يومي يكون مصدر الاستلهام ومعين جميع المعلومات وتواصلها ماراً ومرتكزا على كلّ ما يخزنه رصيد القول على ألسنة القوالات والقوالين، فميزان الاستعراض والتقدير يمر عبر تقرير عام تصاغ محولاته من

خلال ما تحمله نصوص القوال وسط المجتمع العام من أعضاء الجماعة الجماعية، ويمكن أن تتفرّع هذه المحولات باتّجاهات أنساق الضبط والتوجيه والتدعيم من خلال تبيان حدود الموقف العام للجماعة وما يجب ان يكون عليه. القوال باعتباره الواعظ الاجتماعي الموجّه يقوم بكلّ صرامة وتقدير برسم الحدود التي يتحرّك فيها الإنسان تبن الجماعة والتابع لها في فضاء فسيح يضم الأصول والفروع وكلّ تمثلات الممتد الإنساني–الثقافي في الفضاء التاريخي الذي انتشرت فيه القبائل الكبرى في حدود غير متناهية يبقى القول تابعا لها ومرتبطا بها ومحتفظا عليه إلى اليوم11 . فالاستماع للقوّال هو إبحار غير متوقف في كلّ هذا التميّز التاريخي الذي حمل معه المآثر والمصادر والأحداث والمواقع وشذرات كثيرة لها من بقايا الحضور والأثر ما يجعلها مستمرة وقائمة ضمن العمق الإنساني في تشكيل الخبرات محفوظا ومتداولا عبر نصوص القول، التي ليست في كل تنظيماتها البلاغية واللسانية والإيقاعية.

خاتمة:

يتحدد الدور الاجتماعي للنسق في طبيعة ودرجة البنية التي يقوم عليها ويتأسس ضمن حدود نشكلها ودوران مستويات الفعالية بين الدورين الإنساني والثقافي ومدى فدرجة الجماعة او الوحدة الاجتماعية على توفير ما هو ضروري في الشروط الاجتماعية للاستقرار والتوافق والتبليغ، ليكون الانتشار بعد ذلك غبر الوسائط والمعابر التواصلية التي ألفها المجتمع انتشاراً كاملاً ومتكاملاً بين مختلف المكوّنات، ولهذا نرى أنّ للنسق الذي تبلور تاريخياً في المجتمع البيضي هو من نوع النسق المفتوح ولم يكن معلقا باعتبار أنّ البيئة الجغرافيّة التي تحتضن هذا المجتمع حالت دون بقاء أو انتشار النسق المغلق، إنما نال قوامة الدينامية التي هو عليها والشبكة الاجتماعية المشرفة على نسج العلاقات بين هذه الجماعات الاجتماعيّة، من الرّصيد الإنساني بكلّ حمولاته الثقافيّة وجعل السّيرورة سيرورة كلّ الجماعات الاجتماعيّة وجعلها تلقائياً تتوافق على مجموعة من قواعد امتثال مضامين كلّ تلك الحمولات.

كان بالإمكان أن تخلق كلّ جماعة اجتماعيّة نسقها الخاصّ بها ويكون نسقاً مغلقاً وكان يمكن أن يكون الحال حينذاك على شكل جماعات مغلقة على بعضها البعض، ولا تعطي لهذا المجتمع هيئته وصبغته التي هو عليها اليوم، ولكن نسق الفضاءات الكبرى في هذا المجتمع جلب نحوه ووزع كلّ مكوّن من مكوّنات الجماعة الاجتماعيّة وجعل من هذا الإلتقاء نسقاً مجتمعياً عاماً، على نحو نسق مفتوح يتفاعل في كلّ الاتجاهات دون أن يقيّد حركته بانتماء قبلي أو هويّاتي ذاتوي، لذلك جاءت نصوص القول في المجتمع البيضي قويّة وممتنعة، تتشكل من خبرات بلاغيّة تعكس مستوى لساني دقيق، فمتابعة النصوص وقراءتها تفسّر وتربط الدلالات بعضها ببعض وتعطي لنا صورة نموذج تاريخيّة متينة عن النّسب اللفظي والبلاغي للقوّال ولقوله وللشّهرة التي نالتها هذه النصوص، فهي تحمل هوية الجماعة ولا تحمل صورة متشابكة في ذهن القوال.

الـقوال" " هو فرديّة من فرديّات الجماعة تنفرد بالتميّز في السّبك اللّغوي والإبداع البلاغي والفهم التواصلي وتقدير الأثر وامتلاك ترتيب الأزمنة وخلفيّاتها الإنسانيّة، يقوم باستظهار ما كان القاعدة والأساس في حراك السيرورة التي جاءت بالجماعة وحددت لها الموقع والاتجاه في المجتمع البيضي وليس خارجه، فهي ترصيص وتقييد وتقنين للمسارات، لدلك لا يمكننا أن نعتبر القول شعراً بالمعنى المتداول بين الشّعراء وأهل البلاغة.

"القول" هو قياس اجتماعي تقويمي بطبيعة الأدائية، فهو دوما يقوم على وتيرة قياسيّة من التعبير والإدلاء والإحالة والإرشاد، وإعادة التأشير على الممرّات التاريخيّة والإنسانيّة للجماعة الاجتماعيّة، فليس تاريخا بمعنى التأريخ وليس شعراً بالمعنى الدّلالي والبلاغي، لذلك نجد ميلا قوياً بين الساكنة للمجتمع البيضي للقول وسماعه وتعاطيه والوقوف عليه، لأنه المفصل المركزي التي يتبيّنه المنتمون لهذا المجتمع ليكونوا طرفا فعالا عند السّماع، ففي السماع ارتباط وتعلق وانتماء وحفظ آواصر وتواصل على القواعد، فانتشاره بينهم بالتالي ليس انتشارا غنائيا ولا هو كلاما يتسوق على موائد الشّعر والشّعراء، وعند الفهم العلمي الجيّد لطبيعة

القول في المجتمع البيضي نعرف بالدقة المنهجية أنه مسار حياتي–اجتماعي يومي، يحقق التداعي والارتباط والتواصل والتساند.

فالتميّز الذي ينفرد به هذا المجتمع، كونه مترابط العلاقات وقوّة روابطه الاجتماعيّة هي التي تتدخّل لتجعل من التواصل المكثف عبر وساطة القول والقوال، وهذه الوساطة تخلق لنا نمطاً استثنائياً من الرّسم والرّصد لحدود دائمة وضابطة تحقق بين كلّ السّاكنة حالة من القرب التواصلي والاقتراب الفكري والثقافي تتمظهر في كلّ المحامل الاجتماعيّة المتفق عليها على أنها خبرة ورصيد، فالوحدة الاجتماعيّة المتضامنة هي من أبلغ وأكثر جوانب الممرّ البلاغي في نصوص القول، وهي التي تركّز كثيراً بإبراز وإظهار القيم الأخلاقيّة لهذه الوحدة التي صهرت الكلّ في تعدّد يتحوّل ضمن هذا الكلّ الواحد والموحّد إلى قوّة ترعى استمرار فعاليّة المسار الاجتماعي في سيرورة يتميّز نسقها بالنسق المفتوح، وهو الذي ضمن كلّ هذه القوّة والتلاحم والإنصهار في مكوّنات المجتمع البيضي عبر كلّ مراحله التاريخيّة من النشأة والتكوّن وإلى الآن.

فالنسق والرتق، ونصوص القول تبحث عن سيّاقها التواصلي المتواصل في التماوج الذي يبديه في عناق مع الرّوح عبر تشكيلات وتمثلات تحملها تعابير جسد الرّاقص، لتكون رقصة الصفّ تناغماً وانسجاماً وتداخلاً مترابطاً بين الكلمة والحركة، الحضور والوجود، حمولة اللّحظة وجزالة العشق المبرح لتاريخ حفل بالأقوال والملاحم والأحداث والأخذ والرّدود، بالملء والإفراغ بالحياة الصّادقة الصّالحة داخل الحياة المبعثرة بين الشروخ والتفكك والصراع والبحث عن الهوية وسط ركام الهويّات المتلاشية أو المصطنعة على حالات من الضّعف والنزق. هنا نفهم بالمعنى والدّلالة والمنطق أو القول هو فعلا حركة نسق فعّالة تبقى مستمرّة، ففي استمرارها تكمن الحاجة للاسترجاع وتكمن القوّة في الاستباق، فمجلس القول ليس "عادة" تدخل في تدابير الاعتياد قد تنعقد وقد لا تنعقد بحسي توفر شروط الإنعقاد أو التعطّل، كما يذهب إلى ذلك علماء الإنسان والثقافات، فسيرورة العقد الاجتماعي انتظمت وتكاملت في سياق من الارتباط الاجتماعي العام الذي يحتضن بنغس الدرجة من التواجد والفعالية لكل

العناصر المكونة للنسق، ممّا يستدعي في إطار البحث العلمي إدراج ذلك وترتيبه وفق المعطيات القاعدية التي تكونت فيها ظاهرة البداوة، التي هي ثقافة ونظام ونسق تكونت وسارت وسايرت في قوالب تنظيم قواعد انتظام الهياكل.

"المجلس الجماعي" الذي يحتضن " **الـقول** " ويرسّمه نسقا في حياة الجماعة الاجتماعية هو تيار للحياة غير منقطع، بكونه يقوم على تلك اللوازم المشار إليها التي رسّخها المشروع الثقافي للمجتمع البدوي، بفعالية إشراف ومرافقة وتسري من خلاله القيم والقواعد التي نظّمت شروط الحياة واستمرارها منذ بدء تشكل كل هذه الجماعات الاجتماعية التي هي تجمعات وفروع قبائل وعروش، تتلاقى عند رافد واحد لا ينتهي ولا ينكسر رافد القبيلة التي كانت أصل تشكّل الجماعة الاجتماعيّة، لا أحد يحدّد للمجلس موعداً ومكاناً ومناسبةً، الحركة الاجتماعية مادام أن لها فعالية تنتظم كل شيء، ليس لها زمن تنضبط به وليس لها توقيت تتقيد به. لو كان الأمر يتعلق هنا بزمن محدّد وبتوقيت مقيّد لشروط وضوابط معيارية، لتعرّض "القول" إلى التفكك في بنيته واتجاهاته ووسائله وحتى في معجمه الكبير، ولكان مصيره التلاشي والنسيان لمجرد حصول فتور في الانضباط والتقيّد الذي يفرضه الزمن وتوقيت الزمن (التزمين)، وبالتالي لا أحد له الحق أن يتصرّف ويتدخل ويدفع بالأمور نحو اتجاه خاص أو محدّد مسبقاً، فسيّاق المجتمع ومكوّناته وأصل السّيرورة فيه، هي من تتدبّر الأمر كله وتحدّد للجميع انضباطا واحدا ومنمطا وهو التوافق النفسي–الاجتماعي مع قواعد السيرورة التي مكّنت المحطات التاريخية التي عرفها المجتمع البدوي من الرسوخ والتجذّر.

من هنا صار "القول" مسألة حياة ومشروع ومنهج لكلّ الامتداد البشري متجاوزاً بذلك إطار الجماعة الضيّقة، إنه التحوّل التاريخي النادر في الجزائر من مكوّن القبيلة وفروعها إلى مكونات الأمة وقواعدها العضوية في البنية وفي الثقافة، وهذا الانتقال الاستثنائي التاريخي صنع لنا مشروع الدولة الثقافية، وهذا كان عاملا رئيسا من العوامل القويّة، من هنا نعرف الكثير من الأسرار الدالّة على قوة "القول " في التكوين الاجتماعي للأمة والدولة وباقي الهياكل الرّسمية التي تسعى لتحفظه وتجعله متداولا وتسعى لتضمن الانتشار الثقافي الذي

يتجاوز فضاءات البيض والجنوب الغربي عموماً في الجزائر ليمتد إلى عمق الأمّة الجزائرية في كلّ الجغرافيا التي تضمّها، فجغرافية هذا التاريخ يعيد للأمة هيبتها بالارتباط بكل الإرث المتراكم عبر امتدادات القبيلة في الجزائر، وتبقى البيض نموذجاً كبيراً ومصدراً قوياً من المصادر التي تخطّ لنا التاريخ الثقافي والفني والإنساني للقبيلة في الجزار ويمكننا اليوم أنثروبولوجيا وسوسيولوجيا كتابة تاريخ وتفاصيل خصائص القبيلة في الجزائر عبر هذه النصوص الدقيقة والوفيرة التي حفظها لنا فن القول في الجزائر.

هوامش :

1- **عبد القادر خليفي**, « القوْل، المرأة والثورة التحريرية » مجلة إنسانيات 2004 ، ص 13- 24

2- ينظر مثلا: ديوان الشاعر محمد بلخير، في قصيدته التي تزيد عن الـ70 بيتا، والمقفاة بقافية "الهاء": "أنا خديم الرحلة البيضا"

3 أنيسة بركات، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر، منشوات المتحف الوطني للمجاهد 1995، ص: 65.- 67

4- الشيخ قدور بن علية ، وقال نسوة في المدينة دار الغرب للنشر والتوزيع 2001 ص 21 – 26

5- مؤدّاة بالقصبة (الناي) والبندير.

6- تم تأديتها بالبندير (الطبل) فقط.

7- جيلالي بومدين ، فن القول الشعبي في مدينة البيض ومحيطها ، تفاعل الإيقاعي والنصي والحركي في تجلياته ، مداخلة في ملتقى القول ورقصة الصف ، دار الثقافة ممد بلخير البيض نوفمبر 2018، ص من (5- 11)

8- د. بوشيبة عبد القادر ، القول بمنطقة البيض ، مداخلة في ملتقى القول ورقصة الصف ، دار الثقافة محمد بلخير البيض نوفمبر 2018 ص من 31- 37

9- L'harmattan, Paris 1998. P27 Michel Cornaton, Les Camps de regroupement de la guerre d'Algérie. P ,43

10 - Mohamed Teguia L'Algérie en guerre O P U, Alger sans date, P/359

-11 Achour Cheurfi La classe politique Algérienne de 1900 à nos jours Dictionnair biographique Casbah éditions, Alger 2001, PP/224-

مراجع :

1- **عبد القادر خليفي**, « القوْل، المرأة والثورة التحريرية » مجلة إنسانيات 2004 ،

2- ينظر مثلا: ديوان الشاعر محمد بلخير، في قصيدته التي تزيد عن الـ70 بيتا، والمقفاة بقافية "الهاء": "أنا خديم الرحلة البيضا"

3- أنيسة بركات، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر، منشوات المتحف الوطني للمجاهد 1995

4- الشيخ قدور بن علية ، وقال نسوة في المدينة دار الغرب للنشر والتوزيع 2001

5- مؤدّاة بالقصبة (الناي) والبندير.

6- تم تأديتها بالبندير (الطبل) فقط.

7- جيلالي بومدين ، فن القول الشعبي في مدينة البيض ومحيطها ، تفاعل افيقاعي والنصي والحركي في تجلياته ، مداخلة في ملتقى القول ورقصة الصف ، دار الثقافة ممد بلخير البيض نوفمبر 2018

8- د. بوشيبة عبد القادر ، القول بمنطقة البيض ، مداخلة في ملتقى القول ورقصة الصف ، دار الثقافة محمد بلخير البيض نوفمبر 2018

9- L'harmattan, Paris 1998. Michel Cornaton, Les Camps de regroupement de la guerre d'Algérie.

10 10- Achour Cheurfi La classe politique Algérienne de 1900 à nos jours 11Dictionnair biographique Casbah éditions, Alger 2001, -

ملاحق : نماذج مقطوعات قولية

1-قَـوْلٌ بعنوان: "يَا رَانَا جَايِينْ وَالنَّوْبَى رَاهَا فِيكْآآ".

"يَا رَانَا جَايِينْ وَالنَّوْبَى رَاهَا فِيكْآآ يَا عَنْدَكْ لَا تْخِيبْ ظَنِّي (تتكرر لـ04 مرات)، يَا رَانَا جَايِينْ وْنَّخْلَ قِيرْ طْرِيقَاوْشْرَبْنَا لَاتَايْ فَمَّا(تتكرر لـ04 مرات)، قَالُو سِيدِي بْعِيدْ عَنِّي مَا هُوشْ بْعِيدآآ لَا نَجِبَى نْشُوفْ شَوْفَا (تتكرر لـ04 مرات)،

وَانَا رَانِي قْدَيْتْ شْتْ القْبَّا مَا فِيهَا، شْجُورْ مْحَدْرَا فِيهَا(تتكرر لـ04 مرات)، وْلْحَمْلَا شَافْقَ وْحْمِيدَا لْمَجْدُوبْ آآ مّزِينْهَا زَوْرَ هْنَايَا(تتكرر لـ04 مرات)، وْيلَا شْفْتُو الكَارْ قْولُو زْيَارَ جَاتْ آآ، وْلَادَهْ كُلْ عَامْ عَنْدَهْ (تتكرر لـ04 مرات)، وَانَا رَانِي قَادِيَ تْبْقَاوْ عْلَى خَيْرْ آآ وْنْشَاللهْ كُلْ عَامْ نَرْجَعْ (تتكرر لـ04 مرات)، وْرَّكْبْ الّي رَاهْ قَرَّبْ (بمعنى غَرَّبَ) رَانِي فِيهْ آآ سِيدِي بُوجْمْعَ اطْلَقْ سْرَاحِي (تتكرر لـ04 مرات) يَا رَانَا جَايِينْ وَالنَّوْبَى رَاهَا فِيكْآآ يَا عَنْدَكْ لَا تْخِيبْ ظَنّي (تتكرر لمرتين 02)".

2- "قْول" بعنوان: "يَا لِي مَاشِي شَقْ لْمَا ادّي سْلَامِي".

"حْلَيْلِي يَانَا، يَا لِي مَاشِي (قادي) شَقْ لْمَا ادّي سْلَامِي (تتكرر لـ08 مرات)،حْلَيْلِي يَانَا، طْرْيِق بَارِي (باريس) مَنَعْرَفْشْ نِيمْرُوهَا (تتكرر لـ08 مرات)،حْلَيْلِي يَانَا، سَلَّمْ عْلَى (خوتي) الواقش (الجماعة) رَاهُمْ قَاعْ ثَمَّا (تتكرر لـ08 مرات)،حْلَيْلِي يَانَاسَلَّمْ عَلَى حَمُّو وْدّينْ وَلْدْ حَمْزَة (تتكرر لـ08 مرات)، حْلَيْلِي يَانَا، مْنِينْ نَسْمَعْ لَبْسَاطْ (جمع بوسط وهو المذياع) يْهُوضُوا عْلِيَّا (تتكرر لـ08 مرات)، حْلَيْلِي يَانَا، لَالَّةْ حَفْصَة رَاهَا هَايْضَة عْلِيَا (تتكرر لـ08 مرات)،حْلَيْلِي يَانَا، لْيَا تْوَحَشْتِينِي رُوحِي شْوَارْ جْدَّكْ (تتكرر لـ08 مرات)،حْلَيْلِي يَانَا، يَا لِي قَادِي شَقَّلْمَا ادّي سْلَامِي (تتكرر لـ08 مرات)".

3- قْوَلْبعنوان: "تْهَارْ حَمْزَة كِي شَابْ ارَّاسْ".

"وْهِهَآ نْهَارْ حَمْزَة كِي شَابْ ارَّاسْ آآ مَا قْعَدْتْ زَاوْيَة مْسَنَّة (تكرر لـ 08 مرات)، وْهِهَآ لَا وْصَلْ لْلْبَيَّضْ حَطُّوهْ، عَشَّاتْ بَرَوَاتُو مْقَسَّمَة (تتكرر لـ 08 مرات)، وْجَـابُوهْ فْكَلِيشَة مَرْفُودْ وْمْقَلَّفْ بِلْخَضْرَة وَيَا مَّا (تتكرر لـ 08 مرات)، وْهْهَآ لَا مْحَابِنْ قْلِبِي دَفْنُوهْ وَدَارُولُو قْبَّة مْجَيْرَة (تكرر لـ 08 مرات)، وْهْهَآ لَاخَبَارُو وْصْلَتْ قْدَّامُو سِيدْ الفَضِيَّة وْفَاطْنَة (تكرر لـ 08 مرات)، وْهِهَآ نْهَارْ حَمْزَة كِي شَابْ ارَّاسْ آآ مَا قْعَدْتْ زَاوْيَة مْسَنَّة (تكرر لـ 08 مرات)".